المحاضرة الأولى :

من وصايا الحكم الرّبضي :

قال الحكم الربضي من وصية خاطب بها ابنه ولي العهد عبد الرحمن الأوسط:

" وإني وقد وطّدتُ لك الدنيا، وذلّلتُ لك الأعداء، وأقمتُ أود الخلافة، وأمنتُ عليك الخلاف والمنازعة، فاجرِ على ما نهجتُ لك من الطريقة، واعلم أنّ أولى الأمور بك وأوجبها عليك حفظُ أهلك ثم عشيرتكَ ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك، فيهم أنزلْ ثقتكَ، وإياهم واسِ من نعمتكَ، وعصابتهم استشعرْ دون المتوثّبين إلى مراتبهم من عوامّ رعيتك، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم، مستثقلين لأعبائهم، فاحسمْ عِللهم ببسط العدل لكافّتهم، وباختيار أولي الفضل والسداد لأحكامهم وعمالاتهم.....، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة، ولا تدعنّ مجازاةَ المحسن بإحسانه، ومعاقبة المسيء بإساءته فإنَّ التزامك لهذين، ووضْعَكَ لهما موضِعَهما يُرغِّبُ فيك ويُرَهِّبُ منكَ.....".

التعريف بالكاتب:

هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، ثالث الأمراء الأمويين، حكم بين عامي (١٨٠_ ٢٠٦ هـ)، وكان فصيحاً بليغاً وشاعراً مجيداً، وقد عُرف بالحكم الرّبضي نسبةً إلى ثورة (أهل الرَّبض) التي قامت ضدّه؛ لميله إلى اللهو، ولعدم تقريبه العلماء والفقهاء، فحرّض عليه الفقهاءُ العامّةَ على نحوٍ كادَ يذهبُ بحكمه ، لكنه بدهائه تغلّب على هذه الثورة.

فكرة النص:

النص وصيّة كتبها الحكم بن هشام إلى ولي عهده ،وقد جاءت هذه الوصية بلَبُوسِ فنّ الترسّل، وهي أقربُ إلى باب الوصايا منه إلى فنّ الترسّل بشقّيه الشخصي والديواني، ومضمونها السياسي، وهي موجّهة من حاكمٍ إلى ولي العهد.

الأفكار الرئيسة للنص :

حاول الكاتب أن يُبيّن لابنه في النص أنه ترك له دولةً مستقرّةً تجاوزتْ مرحلة الخلاف مع خصومها في الدولة نفسها، ومع أعدائها في الخارج، وتأتي هذه الوصية في محاولة للإبقاء على هذا الاستقرار والحفاظ عليه وفق نهج محدّد ،يكفي وليّ العهد مشقّة التفكير به، إذ يطلبُ إليه تطبيقه فقط بعد أن مهّد له الأمن، ويعتمد النص على الفكر التالية:

١_ ضمانُ التصالح والوِفاق مع الأهل والعشيرة من خلال المقرّبين، والحذر من متمرّديهم.

٢_ الحذر من العوام الناقمين أبداً على الملوك، ودَرْءِ غضبهم بالعدل، وأن يختار لهم القضاة والولاة الصالحين ،وأن يترافقَ العدلُ ببسط الهيبة .

٣_ الإحسانُ إلى المُحسن ،ومعاقبة المسيء ؛لضمان الترغيب والترهيب.

تحليل النص:

النصّ مستخلص من تجربة الحُكْم الطويلة، ومعاناة أحوال السياسة، ويُشبه هذا النص في لغته النثر العربي المُرسل الذي ينتمي إلى البدايات الأولى له حتى نهاية القرن الثاني للهجرة ،وهو أقرب إلى فصاحة الإيجاز، وتوخّي الدقة ،مع سلامة التراكيب، وجزالة اللغة، كما نلمس في النص رقّة الأداء وليونة السبك الذي يُبعده قليلاً عن خشونة البادية، بما يتناسب وطبيعة النص الذي يدخل في باب الوصايا، وينطوي النص على قدرٍ ظاهرٍ من

الحرص على التنغيم الذي تنتهي إليه فواصل الجمل القصيرة، ومن ذلك قوله:(واعلم أنّ أولى الأمور بك ،وأوجبها عليك ،حفظ أهلك ثمّ عشيرتك، ثمّ الذين يلونهم من مواليك وشيعتك، فيهم أنزل ثقتك....).

_ نلاحظ كاف المخاطَب التي ينتهي بها كلُّ مفصلٍ من مفاصل الجمل مع قصر تلك المفاصل وتقارُبها، وقد أشاعت هذه الجمل القصيرة في النص نغمةً موسيقيةً تبدو من الناحية الصوتية أقلّ ثراءً من السجع، لكنها أمكنُ في النفس من النثر العادي الذي لا يراعي هذه التحسينات.

_ هذا النص فيه ميلٌ واضحٌ إلى تجويد العبارة من خلال ترتيب الأفعال وحشدها في النص، ومن ذلك قوله:(وإنّي وقد وطّدتُ لك، وذلّلتُ لك الأعداء، وأقمت...، وأمنت....)(فأعنه ،اختبره، قدّمه ،أجزه ،لا تدعنَّ مجازاة .... يرغب فيك ، يرهب منك).

_ إنَّ ترتيب هذه الأفعال وحشدها على هذا النحو وترتيبها هو وليدُ تفكيرٍ مبعثُه الحرصُ على التدقيق البلاغي ،والسعي إلى تحسين أداء الكلام وتجويده، ويقترب هذا النص في لغته من ميدان النثر الرسمي في الأندلس، ويغلب عليه الطابع الإعلامي ،وتنحصر وظائفه في تبليغ إرادة الحاكم بقصدٍ وإيجاز، وهذه هي سمة النثر في مراحله الأولى في الأندلس.

_ التصوير في النص محدود جداً، ويمكن القول إنَّ النص يفتقر إلى الصور،وجاء فيه عنصر التشخيص على استحياء، فالنثر في هذه المرحلة اتسم بالإيجاز والاختصار والاضطلاع بشؤون الدولة، واحتياجات العصر بأسلوب مباشر مجرّد عن الزينة ، موجّه إلى الأفهام كي يبلغها، كقوله : (جعل الخلافة ذات أود) أضفى الكاتب سمات الإنسان على الخلافة،وجعلها ذات أَوَدٍ ،ناقلاً المعنوي إلى المحسوس .

_ ويظهر الأثر القرآني في النص بصورة غير مباشرة حين أشار إلى صلة الرحم، والإحسان إلى المحسن ، ومعاقبة المسيء.

فبدا قوله تعالى : " هل جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ " واضحاً جليّاً في النص.

الخاتمة :

إنَّ النص يمثّل بدايات النثر الأندلسي في مرحلة بقي فيها دور الكاتب بسيطاً مباشراً بعيداً عن المحسّنات اللفظية إلا ما جاء عفو الخاطر .